أبو إسحاق الصـابى

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٣ —

لابد للكاتب الحريص أن يتحرى النواحى التاريخية التى تتصل بالحياة الأدبية عند ما يعرض حيـاة رجل كأبى إسحاق الصابى خبّ في السياسة ووضع ، وارتفع بأسبابها ووقع ؛ ليتبين هل كان بؤس ذلك الرجل طوال عمره أثر سرف فى خطته ، ونتيجة سفه فى مسلكه ؟ أم أن جيله الذى نشأ فيه هو رأس نكباته ، وأس ويلاته ؛ حتى صار البؤس على وجهه كتاباً مسطورا ، والشقاء فى حياته طريقاً مرسوما ؛ لذلك أرى وصف الحالة السياسية فى العصر الذى عاش فيه موجزا

ولد أبو إسحاق فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، والخلافة مزعزعة الأركان ، واهية البنيان ، يتبارى فى تقويض دعائمها وتهوين رواسخها أمراء متعددون ، وقواد متحفزون ، شغلتهم نفوسهم عن دولتهم ، فهم يبغون لشخوصهم مُلْكا عضودا ، ولدولتهم نهوضاً وسعودا ؛ لا يبالون أن يبنوا ذلك على أنقاض منعة الإسـلام ، أو على انتهاك حرمة السلام ؛ وكان المتألبون أجناساً شتى ؛ فلمترك طوراً القدح المعلى والنصيب الأعلى ، وللديلم حيناً القوة والبطش ، والمنعة والبأس ، والأمة حيال أولئك وهؤلاء كأسراب القطا تتخاطفها البزاة الجارحة ، أو كقطعان الحملان تتناهبها الذئاب الضارية

وفى الثلث الثانى من هذا القرن استتب الأمر قليلا لآل بويه واطمأن إليهم الملك ، فاستولى معز الدولة بن بويه على بغداد بعد أن انتشر فيها الفساد ، وطغت عليها الفاقة ، واجتاحتها المخمصة ؛ حتى هجرها أهلها إلى المدائن والقرى يستمطرون الرحمة ، ويبحثون عن الطمأنينة والدعة ، وبعد مدة خلع معز الدولة الخليفةَ المستكفى بالله ؛ لاتهامه إياه بدسائس يحوكها ضده ، وتدبيرات ينسجها فى الخفاء له ، وولى بعده ابن عمه المطيع لله ، وكان هذا كرة صولجانها معز الدولة ، ورخلة سيفها آل بويه ؛ يأمرون فيأتمر ، ويشيرون فيصنع ، ويشاءون فينفذ ؛ أما أن يكون له من الأمر شيء ، فذلك مالا سبيل إليـه . وظل ذاك شأن معز الدولة يدير شئون الأمة متفرداً ، ويقضى فى سياستها متوحداً ؛ حتى أدركه المنون منتصف القرن الرابع . فتولى الملك بعده ابنه بختيار ، وتلقب بعز الدولة ، وقد أشرف على الخلافة أحد عشر عاماً ، وهو لاهٍ عن أمر وَليـه ، وملك سَلَبه حتى سُلبه ؛ لها بالغوانى الكواعب والمغنيات الكواكب ، فبرز له منافس قوى أوتى نبلاً وبعد همة ونباهة ذكر وحسن أحدوثة هو عضد الدولة ، فدخل بغـداد فاتحاً ، وقبض على محمد بن بَقية وزير عز الدولة وصلبه على رأس الجسر ، وهو المرثى بالقصيدة الخالدة لأبى الحسين الأنبارى وأولها:

علو فى الحيـاة وفى المات لحق تلك إحدي المعجزات

فى هذا العصر أهلّ أبو إسحاق ودرج ، وشب واكتهل ، وشاب وهرم ، فلا بدع أن يناله ما ناله ، ولكن البدع أن يخرج من هذا المعترك لا عليه ولا له ؛ إذ معنى هـذا أنه كان فى الأدباء من النكرات ، وفى رجال الدولة من الإمعات ، وإن حياته لتنبئ عن غير هـذا ، فقد اعتقل فى عصر معز الدولة عند ما ناب عن الوزير المهلبي على ديوان الوزارة والرسائل لخروج الوزير إلى الشام مقاتلاً ، فقتل بعمان ، وقبض على عماله جميعاً وعلى رأسهم أبو إسحاق ومن قوله وهو معتقل :

يا أيهـا الرؤساء دعوة خادم أوفت رسائله على التعديد
أيجوز فى حكم المروءة عندكم حبسى وطول تهددى ووعيدى؟
قلدت ديوان الرسائل فانظروا أعدوت فى لفظى عن التسديد؟
أعلىّ رفع حسـام ما أنشأته فأقيم فيـه أدلتى وشهودى

ولما فك اعتقاله خدم عضد الدولة وهو بفارس ، بالشعر والكتابة يفيض عليه المدح ويضفى الثناء حتى صار الصابى من جملة خاصته ، وموضع ثقته ومحبته ، ومحل رفده ورضيخته ؛ وحتى همّ بالنزوح معه إلى فارس بعـد حلف عقد بينه وبين عز الدولة الدولة بختيار خوف سطوته ، وخشية بطشه وفتكه ؛ لتوثق علاقته بعضد الدولة ، ولكنه — وهو من عرفنا رعاية لأهله ، وحدباً على ولده — خاف أن يأخذ عز الدولة البرىء بالمذنب ، والمحسن بالمسيء ، فينال أهله منه سوء لا يجد لرده دفعاً ، ويصيبهم منه شر لا يعرف له درءا ، فيكون كمن يفدى نفسه بولده ، ويستخلص

دمه بدماء ذوى قرابته ، وما عرفنا فيه خيانة للجار الجنب ، فكيف به يسلم بنيه وذويه ، ويخرج مع البازى عليه سواد ؟ عرف عضد الدولة ما يعتلج فى نفسه ، وما يضطرب به فكره ، فجعل أمنه فى سربه جزءاً من الحلف ، وسلامته فى ولده شرطاً من شروط العقد ، فنص فيه على حراسته فى نفسه وماله ، وترك تتبعه فى شىء من أحواله . وبعد مزايلة عضد الدولة بغداد استخفى خائفاً ، واستتر متوجساً شرا ؛ حتى توسل أحد أصدقائه إلى عز الدولة وإلى وزيره ابن بقية أن يهبا له أمناً ، ويبذلا له عونا ، فقبلا التوسل وتركاه طليقا ، وما لبثا أن قيداه سجيناً بإغراء ابن السراج[1] لهما به ، وفي هذا يقول ياقوت فى معجمه «وجرت له فى هذه النكبة خطوب أشفى فيها على ذهاب النفس ، ثم كفاه الله بأن فسد أمر ابن السراج مع ابن بقية بما عامله بالعلة التى عرضت له ، فقبض عليه ، ونقل القيد من رجل أبى إسحاق إلى رجله[2] » وفى محبسه هذا كتب إلى ابن بقية يستعطفه ويستميحه :

ألا يا نصير الدين والدولة الذي ... رددت إليها العز إذ فات رده
أيعجزك استخلاص عبدك بعدما
تخلصت مولاك الذى أنت عبده ؟

وصفا له الجو ، وهدأت عواصف الشر ، فاستخدمه عز الدولة فأخلص ، واصطفاه فكان نعم المصطفى ، وكتب له كتباً كانت مثار حنق عضد الدولة ، ومدار إحنه ، ولشد ماغضب عندما أنشأ كتاباً عن الخليفة الطائع لله يشيد فيه بعز الدولة ، ومنه « وقد جدد أمير المؤمنين له (أى لعز الدولة) مع هذه المساعى السوابق ، والمعالى السوامق ، التى يلزم كل دان وقاص ، وعام وخاص ، أن يعرف له حق ما كرّم به منها ، ويتزحزح له عن رتبة المماثلة فيها » فقد أحفظه هذا التعريض أعظم حفيظة ، واضطغن عليه أشد ضغينة ، فلما ملك بغداد سنة سبع وستين وثلثمائة هجرية أمره أن يؤلف كتاباً فى مناقبه ، وفى آثار الدولة الديلمية ، وذكر فتوحها ، فأطاع . وبينا هو فى تأليفه وتصنيفه ، وتسويده وتطريسه زاره فى داره عدو فى ثياب صديق ، وسأله عما يعمل ، فزعم عنه أنه قال : أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها ، فحركت القالة المزعومة فى عضد الدولة كوامن غيظه ، وأثارت منه عوامل ضغنه ، فأمر بإلقائه تحت أرجل الفيلة ، ولولا أن استشفع فيه من أصدقائه نصر بن هرون ، ومطهر بن عبد الله ، وعبد العزيز بن يوسف ، لكان فى ذلك اليوم من الهالكين ؛ فقد أقبلوا على الأرض يقبلونها بين يدى ملكهم ضارعين مستشفعين راجين متوسلين ؛ حتى صدر أمره باستحيائه مع اعتقاله ، واستصفاء أمواله ، فبقى فى معتقله هذا ثلاث سنوات وسبعة أشهر وأياماً ، وإن جاء ذكرها فى شعره أربعاً على سبيل التجوز فى قصيدة يسترحم بها عضد الدولة ، وقد خرج لزيارة مشهد أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأولها :

توجهت نحو المشهد العلم الفرد ... على اليمن والتوفيق والطائر السعد
تزور أمير المؤمنين فيا له ... ويالك من مجد منيخ على مجد
فلم ير فوق الأرض مثلك زائراً ... ولا تحتها مثل المزور إلى اللحد

وفيها يقول :

أمولاى : مولاك الذى أنت ربه ... إليك على جور النوائب يستعدى
وهذى يدى مدت إليك بقصة ... أعيذك فيها من إباء ومن رد
أتانى شتاء ليس عندى دثاره
سوى لوعة فى الصدر مشبوبة الوقد
فلو أن برد الجلد عاد إلى الحشا ... وفار الحشا الحران منى على الجلد
أزيحت لنفسى علتاها فأعرضت
عن البث والشكوى إلى الشكر والحمد
وداويت داءىّ النقيضين ذا بذا ... أعدل إفراطاً من الضد للضد

ومنها :

فلاتبعدنى عنك من أجل عثرة ... فإن جياد الخيل تعثر إذ تخدى
ولو كنت تنفى كل من جاء مخطئاً ... إذن لعممت الناس بالنفى والطرد
ومن زلّ يوماً زلة فاستقالها ... فذاك حقيق بالهداية والرشد
توالت سنى[1] أربع ومدامعى ... لها أربع كالسلك سل من العقد

(١) هو محمد بن المظفر بن السراج ، ترجم له البغدادى فى كتابه فى الجزء الثالث فيما قال : إنه مات لتسع بقين من جمادى الأولى سنة عشر وأربعمائة ، عن أربع وسبعين سنه

(٢) الجزء الثانى ص ٣٦ « الطبعة الأخيرة »

(١) كذا باليتيمه وهو تحريف ولعلها سنون ، ودخل التفعيلة الثانية القبض ، وفى البيت الأخير جاءت رؤيا مقصوداً بها البصرية ، فجيئها حجة معاضدة لمن يقول إن الرؤيا تصدق على الحلمية والبصرية

أحوم إلى رؤياك كيما أنالها
حيام العطاش الناظرات إلى الورد

ويبدو لى أنه أفرج عنه عقب هذه القصيدة ، ولكنه ما سلم حتى ودَّع ، وما هنئ حتى ووسى ؛ إذ قبض عليه مرة أخرى عند ما فتح بغداد للمرة الثانية بعد أن استشفع لديه قبل وصوله إليها بأبى سعد بهرام بن أردشير ، وسأله أن يذكره لدى عضد الدولة ، ويقيم له عذره ، ويوضح له أمره ؛ فكان جواب عضد الدولة العفو والمغفرة فى كتاب طويل منه : « ومن كانت به حاجة إلى إقامة معذرة ، واستقالة من عثرة ، أو الاستظهار في مثل هذه الأحوال بوثيقة ، فأنت مستغن عن ذلك بسابقتك فى الخدمة ومنزلتك من الثقة ، وموقعك لدينا من الخصوص والزلفة » . ومنه : « فاسكن إلى ذلك واعتمده ، ولك علينا — الوفاء به — عهد الله وميثاقه ، وقد حملنا أبا سعد — أعزه الله — فى هذا الباب ما يذكره لك . والله نستعين على النية فيه وهو حسبنا »

ودخل عضد الدولة بغداد وهو عنه راض ، وبرحها إلى إلى الموصل وهو إلى ولاء الصابى مطمئن ، ولكن الوشاة — وما أكثرهم — نبشوا الدفائن ، وأخرجوا كتباً من عز الدولة إلى أحد عماله بخط الصابى ؛ وفى بعضها قدح فى عضد الدولة ، ورفعوها إليه ، فكتب من الموصل بالقبض عليه ، ولعل حديثه هو عن نفسه أدق من حديثنا عنه ، فهو يقول :

« كنت[1] جالساً بحضرة أبى القاسم المطهر بن عبد الله وزير عضدالدولة فى يوم القبض علىَّ إذ وردت النوبة ، ففضت بين يديه وبدأ منها بقراءة كتاب عضد الدولة ، فلما انتهى إلى فصل منه وجم وجوماً بان فى وجهه ، فقال لى أبو العلاء صاعد بن ثابت : أظن فى هذا الكتاب ما ضاق صدراً به ، وقمت من مجلسه لأنصرف ، فتبعنى بعض حجابه ، وعدل بى إلى بيت من داره ؛ ووكل بى ، وأرسل يقول لى : لعلك قد عرفت منى الانزعاج عند الوقوف على الكتاب الوارد من الحضرة اليوم ، وكان ذلك لما تضمن من القبض عليك ، وأخذ مائة ألف درهم منك ، وينبغى أن تكتب خطك بهذا المال ، ولا تراجع فيه ؛ فو الله لا تركت ممكناً فى معونتك وتخليصك إلا بذلته . وقد جعلت اعتقالك فى دار ضيافتى ، فطب نفساً بقولى ، وثق بما يتبعه من فعلى » كما قبض على ولديه أبى على المحسن ، وأبى سعيد سنان ؛ وقد وفى الوزير أبو القاسم بما وعد ، فسأل عضد الدولة إطلاقه واستخلافه لقيام أبى القاسم على رأس جند لقتال صاحب البطيحة ، فقال له :

أما العفو فقد شفعناك فيه ، وينبغى أن تعرفه ذلك وتقول له إننا قد غفرنا لك عن ذنب ، لم نعف عما دونه لأهلنا يعنى : عز الدولة والديلم ، ولأولاد بيتنا — يعنى : أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوى ، ولكنا وهبنا إساءتك لخدمتك وعلينا[1] المحافظةَ فيك على الحفيظة منك ، وأما استخلافك إياه بحضرتنا فكيف يجوز أن ننقله من السخط والنكبة إلى النظر فى الوزارة ولنا فى أمره تدبير ، وبالعاجل ، فتحمل إليه من عندك ثياباً ونفقة وتطلق ولديه ، وتقدم إليه عنا بعمل كتاب فى مفاخرنا . فحمل إليه المطهر ما أمر به الملك وأطلق ولديه ، ورسم له تأليف الكتاب وبقى الصابى فى محبسه يؤلف حتى أتم المؤلف ، فلم يفرج عنه لوقته بل قيل : إنه أخر الافراج عنه سنة ، فلما رفع إليه إحدى قصائده يطلب فيها الصفح عنه والافراج ، قرئت عليه ولديه بعض أصدقاء أبى اسحاق ومنهم أبو الريان حامد بن محمد وعبد الله بن سمدان فقبلا الأرض وقال أحدهما : إن من أعظم حقوقه علينا وذرائعه عندنا أن عرفناه فى خدمتك ، وخالطناه فى أيامك . قال : فاذا كان رأيكما فيه ، فأنفذا وأفرجا عنه ، وتقدما إليه بملازمة داره إلى أن يرسم له ما يليق بمثله ، فأفرج عنه قبل وفاة عضد الدولة بأيام ، وقيل بل بقى فى السجن حتى أفرج عنه ابن عضد الدولة أبو الحسين تاج الدولة

وإنى أرجو غير فاخر أن أكون قد وفقت فى سرد وقائع هذا الجزء من حياته ، وقربت بين الروايات المتضاربة عن اعتقالاته ، مستنداً فى ذلك الترتيب على التاريخ السياسى للدولة البويهية ، وفى المقال التالى نتحدث عن كتابته

عبد العظيم على قناوى

(١) كتاب معجم الأدباء . الجزء الثانى ص ٤٠ الطبعة الاخيرة

(١) ضبط شارح المدحم المحافظة بالضمة وأرى أنها مفتوحة لانها مفعول « لعلى » وهو فعل متعد يأتى المضارع لا أنها مبتدأ مؤخر ، وسياق العبارة يؤيد هذا الرأي